طنجة... حتّى لو كره المُطبِّعون

عائشة بلحاج

لكلِّ مدينته، وهذه مدينتي، تشدُّ عضدي وأهشُّ فيها على دوائر الزمن. تُحبّني وأُحبّها، وَمَنْ لا يُحبّ طنجة؟ كيفما كانت المدينة التي يَظْنُان أنّ طنجة عليها، لا يملك المرءُ والمرأة إلّا أن يُحبّاها. لكنّني أزعم أنّ نسختي منها تمثّل وجهها الحقيقي. وجهٌ يراه جُلُّ أهلها، سواء القادمى منهم أو الذين قدموا في آخر عقود، وامتدّ بينها وبينهم الودُّ، حتّى صارت مدينتهم هم أيضاً. اعتادَ بعضهم التغنّي بالمدينة التي كانتها طنجة بداية القرن العشرين ومنتصفه، مع غرام الفنّانين والكُتّاب العالمين بها، بين فترة الاستعمار الدولي والعقود الأولى بعد الاستقلال، قبل أن تختفي هذه النسخة، لتبقى طنجة الأخرى، الحقيقية، التي يُقيم فيها أهلها وتتمدّد مع الهجرات الكثيفة التي ضاعفت سكّانها، التي حافظت على شيء واحد على الأقلّ يُميّزها، منذ ما لا أحد يذكرهُ من الزّمن: هو الوعي السياسي للناس هنا.

إبّان حركة 20 فبراير (2011)، كانت طنجة في مقدمة مدن المغرب التي تقود الحراك وتصنّعه، وآخر معاقله، فبفبراير وطنجة ظلّا يخرجان كلّ يوم أحد بعد توقّف باقي المدن، وإقرار الدستور الجديد، لأنّ وعيهم السياسي علّمهم أنّ الديمقراطية الحقيقية تحتاج أكثر ممّا كان يُعرَض.

هذه السنة، ومنذ بداية «طوفان الأقصى»، طنجة هي المدينة الوحيدة التي لم تتوقّف عن التظاهر تضامناً مع غزّة. كلّ يوم أحد، يخرُج آلاف النساء، والأطفال والرجال حاملين الأعلام الفلسطينية، لتُعتبر الصور التي تُلتقط لهذه الحشود أبلغ تعبير عن استمرار زخم التضامن مع أهل غزّة. ضايق طول نفس الطنجاويين طبول التطبيع، فبدا الإعلام الأصفر، الذي يقف خلفه مساندون علنيون لإسرائيل، يهاجم أهل المدينة، التي لم ترغب في السكون والصمت كما يفعل كثيرون، طارحين السؤال القَذافي: من أنتم؟... هؤلاء، عدا أنّهم طبول عمياء لا مبادئ لها، لا يعرفون تاريخ المدينة مع الوعي الاحتجاجي في أصعب المراحل منذ الاستقلال، ولا كيف أنّها سيرة لم تُغلق يوماً منذ أن فُتحت. كانت مدينتا طنجة وفاس في العام 1990 معقلي إضراب عامّ لن ينساه التاريخ. ورغم أنّ فاس كانت الرائدة والأكثر تضرّراً، وعدد القتلى فيها برصاص الجيش فاق المائة، لكنّ طنجة أيضاً عرفت مواجهات حامية بين المتظاهرين والشرطة، أو بالأحرى، هاجمت فيها قوّات الأمن المتظاهرين بادئة برشّة رصاص مطّاطي، ثم أتبعته بالرصاص الحي.

في هذه الفترة، كنتُ وعائلتي نقيم قرب ساحةٍ تُشكّل مركز التظاهر الرّئيسي (وما زال). كانت حشود المُحتجّين تمرّ بشارعنا، والقنابل المسيلة للدموع ترتطم بجدران البيت كنت طفلةً، ولكنّي أُخذت بشجاعتهم. رغم أنّ بعضاً حولي وصفهم بالمخرّبين، كما فعل الخطاب الرسمي. كانت ردّة فعلي من لا يعرف، وكيف يعرفُ من لم يُجرّب، ولم يُفكّر خارج مصلحته الشّخصية، من لم يعرف التهميش والتضييق على لقمة العيش، وليس له الوعي السياسي ولا الموقف المبدئي تجاه القمع.

في 2016، خرج أبناء المدينة، بعشرات الآلاف، في بادرة غير مسبوقة، للتظاهر ضدّ الشركة الفرنسية المُكلّفة قطاع الكهرباء والماء، التي طفت وبعثت للناس فواتير فلكيّة ما أُنزل بها من سلطان. كان الحراك من أجمل ما يمكن أن يعرف، وكيف يعرفُ من لم يُجرّب، ولم يُفكّر خارج مصلحته الشّخصية، من لم يعرف التهميش والتضييق على لقمة العيش، وليس له الوعي السياسي ولا الموقف المبدئي تجاه القمع.

في 2016، خرج أبناء المدينة، بعشرات الآلاف، في بادرة غير مسبوقة، للتظاهر ضدّ الشركة الفرنسية المُكلّفة قطاع الكهرباء والماء، التي طفت وبعثت للناس فواتير فلكيّة ما أُنزل بها من سلطان. كان الحراك من أجمل ما يمكن أن يعرف، وكيف يعرفُ من لم يُجرّب، ولم يُفكّر خارج مصلحته الشّخصية، من لم يعرف التهميش والتضييق على لقمة العيش، وليس له الوعي السياسي ولا الموقف المبدئي تجاه القمع.

القتل في السودان بالمجّان والجوع بالتفاوض

جمال محمد إبراهيم

1

ضُعفتُ وأنا استمع لتصريح أحد جنرالات الحرب العبثية في السودان، يصبح في تشنج غير محسوب عن استعدادهم لخوض هذه الحرب ضدّ المليشيات المتمرّدة، ولن يوقفوها حتّى لو استمرّت مائة عام. طافت بذهني على الفور أصوات إعلامية عربية شنّفت آذان الناس بباطل لم يخدم قضية ولا مصلحة، مثل صوت أحمد سعيد، في إذاعة صوت العرب، الشهير قبل سنوات حرب يونيو/ حزيران عام 1967، وصوت صحّاف بغداد (محمّد سعيد الصحّاف) قبل سقوط نظام صدّام حسين عام 2003. ثمّ سمع الناس صوت نظام الإنقاذ البائد في السودان في سنواته الأولى يَصدُر عن الضابط يونس الذي أرسل إساءة مقذعة إلى العاهل السعودي في إحدى شطحاته الإعلامية البذيئة، كادت أن تدمّر علاقات الشعبين الشقيقين، بما ضعّف على دبلوماسية البلدين مهمّة إصلاح ذلك الجُموح ورتق تلك الفتوق. تلكم هي الأصوات الطنّانة التي شاعَ في كثير من أنظمة الحكم في المنطقة العربية وانْطوت سنواتها. لكنّها جلبت لأمّة العرب سمعة أنهم محض ظاهرة صوتية، بل محض طبول مجوّفة تُصدر أصواتاً مضخّمة وجعجعة من طواحين بلا طحن. الآن تزويدهم بالغذاء، صار الأمر الجعجاعون هم من يكترون الكلام ولا يعملون، تلك هي العنترية التي ما قتلت ذبابة، على قول الشاعر نزار قباني.

2

لو أنّ تصريح ذلك المسؤول العسكري السوداني، وهو في منصب مساعد قائد الجيش، موجّهٌ إلى عدوٍّ خارجي يقاتله لعذرناه، لكنّهُ أطلقه مُرسلاً على الهواء وقوات السودان المُسلّحة تقاتل متمرّدين عليها. تلك حربٌ اختلط حابلها بنابلها وهو قتال سوداني - سوداني، ظاهره صِراعٌ حول كراسي الحكم، تتصاعد وتيرتُه تنافساً في السيطرة على حكم السودان. والعسكر الحاكمون في البلاد، بمن فيهم صاحب ذلك التصريح الناري، لا يريدون وقف حرب أوسعوا فيها السودانيين قتلاً وتشريداً، وفي الوقت ذاته، يناشدون المجتمع الدولي لنجدة شعبهم من ويلات الجوع، وهم، بالمُلخّص، من تسبّبوا فيه.

يبعثون بوفود عنهم إلى سويسرا من أجل تفاوض لتأمين مساعدات للمواطنين السودانيين، وهم في الحقيقة من أشعلوهم قتلاً وتشريداً ونزوحاً. لكأنّ الأولويات في ناظريهم، قد انقلبتْ رأساً على عقب. إذْ عوض إنقاذ السكّان من القتل ثم تزويدهم بالغذاء، صار الأمر أطعموا ثم دعوا الناس يتكلّمون. هل للأمم المتّحدة من جدّية تُحمد في معالجة أزمة ملايين السودانيين المُهدّدين بالموت جوعاً في بلادهم جرّاء قتال لا ناقة لهم فيه ولا جمل؟... تلقي السؤال طرف الأمين العام للأمم المتّحدة ممثّلاً له في السودان، ولعلّنا نتفاءل بتولّيه المهمّة، إذْ هو خَبير حصيف، وإن كان لكلّ امرئ من اسمه نَصيب، فأصل اسم الرجل، لغة، يتّصل بإعمار وتعمير، وأكثر ما يتوقّع السودانيون من لعمارة هو اهتمامه بوقف الدّمار والتخريب، وإن يضع أولى أولوياته وقف الحرب، ثمّ إعادة إعمار الأرض. يريد السودانيون دبلوماسياً أمميّاً يضع نصب عينيه إنقاذ المكلومين في حرب السودان من القتل المجّاني لا من الجوع، ثم حماية العمارة القائمة وحمايتها، فلا تهلك هياكل الدولة، حتّى لا تكون استعادة بعضها أشبه بالمستحيلات المُحيّرة.

> يريد السودانيون دبلوماسياً أمميّاً يضع نصب عينيه إنقاذ المكلومين في حرب السودان من القتل المجّاني لا من الجوع

3

يعجب المرء من مجتمع دولي نرى بعض أطرافه تسارع إلى بناء مرافئ في غزّة الجريحة، لترسو فيها حاملات الأغذية القادمة من البحر، كما تعمل حثيثاً لإسقاط أطنان منها من الجوّ، من دون حاجة إلى تفاوُض في جنيف أو أي موقع خارجي آخر. بل الأغرب أن تجد من بين المسارعين في تشييد تلك المرافئ هم أنفسهم من الحكومة الأميركية المتواطئة مع ذبح غزّة، عبر تزويد الكيان الصهيوني بما يريد من الأسلحة والطائرات القاتلة. مصدر العجب، هو التطويل غير المُبرّر والمناورة في تفاوض غير مُجدٍ، حول تزويد السودانيين بالغذاء، فيما الملايين منهم عرضة للموت قتلاً بأيدٍ مجرمة تطاولهم قبل الموت جوعاً.

4

هل للأمم المتّحدة من جدّية تُحمد في ومن دون أي تخصيص أو إشارة إلى منظّمة من منظّماته أو وكالاته أو هيئاته الأممية، يحيلنا لوقفة حائرة، إذ يضع الوقت في حوار وجولات تفاوض في عواصم بعيدة لمعالجة مُتطلّبات إنسانية تتصل بالمأكل والمشرب، فيما الحاجة الأوجب هذه السّاعة، هي إيقاف ماكينات القتل المجّاني لشعب لا يخُصّه ذلك القتال الدائر في شيء، وأكثر من نصف سكانه بين نازح مُطارد داخل بلاده، أو نازح هارب إلى بلدان مجاورة لا يجدون عندَ أغلبها ترحيباً أو ملاذات تبعدهم عن ويلات ما يلاقون من حرب عبثية، ولا طائل من ورائها، إلّا ربّما تلاحق أطراف خفية مصالح لها في دوران عجلة الحرب الدائرة بلا هوادة في السودان.

5

الدبلوماسي الأممي رمطان لعمارة، وهو عربي جزائري، يدرك تماماً عمق المأساة السودانية، ولم يكن اختياره اعتباطيّاً من طرف الأمين العام للأمم المتّحدة ممثّلاً له في السودان، ولعلّنا نتفاءل بتولّيه المهمّة، إذْ هو خَبير حصيف، وإن كان لكلّ امرئ من اسمه نَصيب، فأصل اسم الرجل، لغة، يتّصل بإعمار وتعمير، وأكثر ما يتوقّع السودانيون من لعمارة هو اهتمامه بوقف الدّمار والتخريب، وإن يضع أولى أولوياته وقف الحرب، ثمّ إعادة إعمار الأرض. يريد السودانيون دبلوماسياً أمميّاً يضع نصب عينيه إنقاذ المكلومين في حرب السودان من القتل المجّاني لا من الجوع، ثم حماية العمارة القائمة وحمايتها، فلا تهلك هياكل الدولة، حتّى لا تكون استعادة بعضها أشبه بالمستحيلات المُحيّرة.

6

لعلّ ممّا يساعد في مساعي حلّ أزمة حرب السودان، هو ما يُتوقّع من جهد إعلامي دولي وإقليمي، بتسليط الضوء كثيفاً على تداعيات تلك الحرب، فلا تسقط من ذاكرة الضمير الإنساني. نرى للإعلام الدولي والإقليمي حضوراً كثيفاً في الحرب الدائرة في قطاع غزّة، وكذلك في الحرب بين أوكرانيا وروسيا. ولعلّ وجوها إعلامية سودانية تُلاحظ مشاركتها في تغطيات تلكما الحربين في قنوات عربية وعالمية. لإن سألت عن أي وجود لمراسل أجنبي يتابع ميدانياً ما يدور من وقائع حرب ضروس في مساحات ومدن وقرى السودان كلّها، فلن تجد أي أثر لمراسل أجنبي. فإن سمعت عن حرب منسيّة، لك أن تعلم أنّها حرب السودان.

(سفير سوداني سابق)

ألعاب أولمبية وأكثر في باريس

يقظان التقي

أنجزت فرنسا استعدادات دورة الألعاب الأولمبية 2024 في باريس، بمواجهة جميع المهام والتكيّف معها، باستخدام وسائل التجهيز والمراقبة والأمن، لضمان سلامة حفل الافتتاح والفعّاليات وأمان اللاعبين، وتحسبًا لأيّ تهديد لأعمال الدورة، وتأكيداً للسلامة وللسلاسة وللكفاءة. جهوزية عالية وقصوى بالتعاون مع القوى الأمنية المشتركة، بسبب المخاوف الأمنية واللوجستية، وسينشر نحو 45 ألفاً من عناصر الشرطة والدرك، و18 ألفاً من الجنود، لتأمين الألعاب، مع مشاركة وحدات بريطانية وسلوفاكية ومغربية وقطرية وإسبانية، ومن كوريا الجنوبية، في مساهمة أمنية لقوى الأمن الدولية في محطات القطارات والمطارات، ومحيط الألعاب، تحت إشراف المنشقة الوطنية لأمن الألعاب الأولمبية. من المُتوقّع أن تشهد باريس حدثًا عالميًا فذًا، يجذب الأنظار من جميع أنحاء العالم، مع برامج الضيافة والخدمات المُميّزة، مثل الإقامة والنّقل والجولات السياحية، وسيُنظّم حفل الافتتاح، للمرة الأولى في تاريخ الألعاب، خارج الملعب الأولمبي، عند نهر السين.

كانت الألعاب الأولمبية دائمًا أكثر من مُجرّد رياضة، ومنذ العام 1896 نُظّمت مهرجانًا عالميًا يُرسل رسالة إلى الإنسانية في القرن التاسع عشر. الرياضة تعكس التاريخ وتطوّر المجتمعات، ويمكن ملاحظة أنّها مرتبطة ارتباطًا دقيقًا بالقيم الديمقراطية المثالية، وأنّها مرآة العادات عند الشعوب، وتُشكّل فرصة للخروج من المواجهات الأيديولوجية. اليوم في فرنسا، هي أكثر من مُجرّد نشاطات رياضية، هي جزء من الثقافة والمجتمع في فعّاليات حفل الافتتاح من عروض موسيقية وفنّية، وتاريخ من مائة عام من المنافسات، يُجسّدها الشغف الرياضي، بحضور حوالي 120 من رؤساء الدول والحكومات من مختلف أنحاء العالم، و10500 من اللاعبين، بالإضافة إلى الاف الفنانين الذين سيتقدّمون بعروض متنوّعة في طول نهر السين. استعدادات هائلة أعلن عنها، تشمل المجال الجوّي، تشير أيضًا إلى تأثير أمني واقتصادي استثنائي مقارنةً بدورات سابقة. تشير الدراسات إلى أنّ الألعاب ستنتج ما بين ستّة أو سبعة إلى 11 مليار يورو من الفوائد الاقتصادية لمدينة باريس، مع سيناريو متوسّط لتحقيق 8,9 مليارات يورو، ويُتوقّع حضور ما بين ثلاثة إلى أربعة ملايين زائر إلى المدينة، وهو ما يساهم في إنفاق سياحي بثلاثة مليارات يورو.

وعلى الرغم من التحدّيات الاقتصادية والاجتماعية التي تواجهها فرنسا، يمكن للألعاب أن تولّد إيرادات ضريبية تصل إلى 5,3 مليارات يورو (أربعة مليارات و11900 لعبة)، تساعد في تعويض الاستثمارات العامّة، ويمكن أن تعد بفوائد كثيرة، وتعزّز الاقتصاديات المحلّية والترويج للسياحة العامة، فيرتفع عدد السيّاح هذا العام في فرنسا إلى 50 مليون سائح، ما يُعزّز مكانة وصورة فرنسا في المستوى الدولي، ويرتكز الانتباه أكثر على الفوائد الثقافية والاجتماعية، بعيداً عن التوتّرات السياسية المُستمرّة. هذا لم يمنع دعوات مُتصاعدة متأخّرة لتعليق المشهد الأولمبي مُؤقّتاً، إدراكاً لخطورة التحدّي المناخي، وكانت إحدى النجاحات الطريقة التي أظهرت فيها الألعاب التأثير العميق لتغيير المناخ. اضطرت طوكيو في العام 2020 إلى نقل الماراثون لمسافة 800 كيلومتر، لأنّ فصول الصيف الحارّة والرطبة تُشكّل تلوّثاً مُتزايداً على المشاركين في طوكيو. كما أجبرت العواصف القوية على إعادة جدولة ركوب الأمواج. وتواجه الألعاب الشتوية المزيد من المسائل المناخية في الجبال العالية، وأثّرت في شرائح الثلج الصناعي في دورة بكين 2022.

أولى منظّمو الأولمبياد باريس هذه القضية كثيراً من التفكير، ووضعوا خطط طوارئ لما يجب فعله في حال تعرّض المدينة لإحدى موجات الحرارة الصيفية التي تشهدها أوروبا، وهم يسعون إلى تحقيق بصمة كربونية تساوي ضعف حجم بصمة لندن 2016. مع ذلك، ستظلّ الألعاب باريس تنتج أكثر من طنّ ونصف مليون طنّ من الكربون في مهرجان يجذب نحو 11 ألف رياضي، وعشرات الآلاف من المدربين والإداريين، وأكثر من 30 ألف صحافي. التحذيرات التي يطلقها نشطاء المناخ والأمين العام للأمم المتّحدة أنطونيو غوتيريس لم تكن مُؤثّرة.

تواجه الألعاب الأولمبية المشكلات نفسها التي تواجهها المؤسّسات الراسخة غير المتوافقة مع ظروف سياسية متغايرة، فتأتي الدعوات إلى الإيقاف، أو إلى رفض مشاركة الفرق الإسرائيلية. وهي مناسبة لأن يرسل المهرجان إشارة قوية بشأن مدى إلحاح وقف لحظة الحرب في غزّة وأوكرانيا. ويمكن للعالم أن ينتهز الفرصة للقاء بشيء من الاستجابة لأزمة الاستقرار، وسوف يستلزم ذلك مستوى مختلفاً من العمل السياسي والإنساني والاجتماعي، وفرنسا هي المكان المثالي للبدء بذلك في إدارة الأحداث، التي يأتي الحدث الأولمبي ضمنها، غير بناء شراكات سياحيّة وتجاريّة وإعلانيّة تقوم بوظائف كبيرة مترتبطة. وهذا من شأنه أن يشرف على رسالة سلام أكثر شفافية من مسؤولية المنظّمة الرياضية العالمية (كان من المُقرّر أن تستضيف برلين الألعاب عام 1916، لكنّ الحرب العالمية الأولى اندلعت، وكانت الدولة المضيفة البديلة هلسنكي مشغولة في العام 1944 بقتال الاتحاد السوفييتي).

> رغم التحدّيات الاقتصادية والاجتماعية التي تواجهها فرنسا، يمكن للألعاب أن تولّد إيرادات ضريبية تصل إلى 5,3 مليارات يورو

يذهب اللاعبون إلى الألعاب الأولمبية ليس بهدف تمثيل بلادهم بأفضل ما لديهم فقط، ولكن أيضاً ليعبّروا عن القدرة على قول شيء بطريقة فنّية وبأسلوب ممتع. لا نعرف ما الذي سنراه في المسابقات غير الركض والجري والسباحة والقفز، وهي فرصة لاستكشاف روح الألعاب؛ الأسرع والأعلى والأقوى، والأشكال المختلفة التي يمكن أن يصنعها الجسد، أو يتحرّك فيها رجال ونساء من جميع أنحاء العالم للعثور على رسائل جديدة. مثل هذه الرسائل ليست عرضاً جانبياً في الهدف الاجتماعي، أو المهمّة الأخلاقية، في احتضان الحركة الرياضية لحقوق الإنسان (قوّض احتضان الحركة تلك الحقوق في مدى العقدين الماضيين بسبب تعاملها مع الدول المضيفة الاستبدادية، وهذا الصيف سبّب التناقض الملحوظ في حظر روسيا بسبب غزوها أوكرانيا، ومنع إسرائيل عبر المساعدات إلى غزّة). تبقى الرياضة الجديدة التي ستتنشط في الأولمبياد، وستظهر رياضة البريكنغ (البريك دانس) للمرة الأولى هذا الصيف في باريس، وتنضمّ إلى الألعاب الحضرية الجديدة، مثل «بي أم اكس» والتزلّج وكرة السلة، وهو جزء من تحوّل واسع يشمل العديد من الأحداث الموجّهة للشباب في لعبة كسر الأرقام القياسية، وفق معايير التقنية والتنفيذ والموسيقى، والأصالة في الأسلوب الشخصي والعفوية، وابتعاد نظام مُقارَن من قبل لجان التحكيم، ما يسمح بالتنوّع والعفوية في مصادر من الإلهام والفنون والجاذبية، إلى الرقص اللاتيني والجمباز.

في مدار سنوات طويلة زاد مستوى الألعاب الأولمبية بشكل مُطرد مع نمو المسابقات الدولية، واستُكشفت أخيراً التداعيات الثقافية لإدراج بعض الألعاب مثل البريكنغ في عدد خاص من مجلة دراسات «الهيب هوب» العالمية. ومن يدري، ربّما غداً أغاني الدوب والراب. من وجهة نظر أخرى، فإنّ التوقّف عند الألعاب يُوسّع الفهم لمفردات حركة الجسد البشري وتحرّره، ولمجتمع مستدام ومستقرّ، ولكوكب صالح للحياة والسكن، مع أنّه ليس من الواضح كيف تُولجت مشلكة السكن والإقامة في باريس المُقفلة تماماً.

(كاتب لبناني)

إجراءات أمنية مشددة في باريس، 23 يوليو 2024 (مراد أوينيك/الأناضول)

انتخابات فنزويلا... الاستمرارية والتغيير

بشار نرش

مع اقتراب موعد إجراء الانتخابات الرئاسية الفنزويلية في 28 يوليو/ تموز الجاري، ومع وجود عشرة مرشّحين نالوا دعم أكثر من 30 حزباً سياسياً، يبدو أنّ الحزب الاشتراكي المُوحّد الذي يتزعّمه الرئيس الفنزويلي نيكولاس مادورو سيواجه، لأول مرّة منذ أكثر من 25 عاماً، تحدّياً جادّاً في الانتخابات الرئاسية، عقب توحّد المعارضة الفنزويلية وإعادة تنظيم صفوفها للدخول في هذه الانتخابات بمُرشّح مُشترك، هو إدموندو غونزاليس أوروتيا، بدلاً من زعيمة المعارضة ماريا كورينا ماتشادو، التي قضت المحكمة بعدم أهليتها للترشّح بعدما فازت في الانتخابات التمهيدية للمعارضة الفنزويلية في أكتوبر/ تشرين الأول الماضي بحوالي 92% من الأصوات.

تُظهر القراءة الأولية للمشهد الانتخابي الحالي مشاركة ثلاثة ائتلافات حزبية عريضة في هذه الانتخابات، يتقدّمها ائتلاف القُطب الوطني الكبير (البوليفاري التشافيزي)، الذي يضمّ الحزب الاشتراكي المُوحّد (الحاكم)، إلى جانب ثمانية أحزاب أخرى، وائتلاف أحزاب المعارضة «المُنصّة الوحدوية» (الليبرالي المعارض للتشافيزية)، الذي يضمّ حزب العمل الديمقراطي إلى جانب تسعة أحزاب أخرى، تراوح بين أحزاب الوسط واليمين، وائتلاف الديمقراطيين الشعبي (البوليفاري التشافيزي)، الذي يضمّ الحزب الشيوعي الفنزويلي إلى جانب عشرة أحزاب أخرى، يتصدّر كلّ من الرئيس نيكولاس مادورو ومرشّح المعارضة إدموندو غونزاليس أوروتيا، الذي يخوض الانتخابات تحت شعار «الرئيس للجميع»، ويُركّز في خطاباته على المصالحة والتشافيز، للحدّ من الصراع والاستقطاب، هذا المشهد الانتخابي من خلال تبنّي مادورو شعارات اشتراكية تشافيزية (السياسات الاشتراكية لتشافيز وخليفته مادورو)، معادية للغرب، وتبنّي غونزاليس شعارات يمينية معادية للتشافيزية.

ففي ظلّ هذا المشهد الذي بدت معالمه أكثر وضوحاً واستقطاباً، يعتبر محللون ومتابعون للشأن الفنزويلي هذه الانتخابات من أكثر الانتخابات الفنزويلية أهمّية، نظراً إلى الآمال الكثيرة المعقودة عليها داخلياً وخارجياً، وبعدّونها اختباراً حاسماً للديمقراطية في فنزويلا، فهي، من جهة، تُعدّ فرصة لاستعادة شرعية النظام السياسي الذي يقوده مادورو منذ عام 2013 خلفاً للرئيس الراحل هوغو تشافيز، لذلك يعتبرونها فرصة لإعادة تعزيز المبادئ الديمقراطية في فنزويلا بعد سنوات من التراجع في المؤسّسات الديمقراطية تحت حكم مادورو، الذي يسعى إلى ولاية رئاسية ثالثة مدّتها ستّ سنوات.

ومن جهة أخرى، تُعدّ وسيلة محتملة للتغيير السياسي الذي قد يقود إلى تعافي الاقتصاد الوطني المتهالك باتباع سياسات اقتصادية أكثر فعالية، خصوصاً أنّ الأزمة الاقتصادية الحادّة التي تعصف بفنزويلا منذ سنوات طويلة وصلت إلى مرحلة حرجة جدّاً بعدما تسبّبت بنزوح أكثر من سبعة ملايين فنزويلي إلى خارج البلاد، وارتفاع نسب التضخّم والبطالة والفقر إلى أرقام قياسية، وهذا ما تُركّز عليه المعارضة في حملتها الانتخابية، والتي تسعى من خلالها إلى استغلال الاستياء الشعبي الواسع ضدّ نظام مادورو لتحقيق الفوز في الانتخابات.

ومن جهة ثالثة، تُعدّ هذه الانتخابات وسيلة لإعادة تشكيل العلاقات الدبلوماسية لفنزويلا مع دول الجوار بعد توتّرها في السنوات الأخيرة، ولا سيّما مع الولايات المتّحدة والأرجنتين وكولومبيا والبرازيل، والتي عكست تأثير الأزمة الفنزويلية في الأوضاع الإقليمية ككلّ. لذلك، لا ينظر مُحلّلون ومتابعون إلى هذه الانتخابات باعتبارها عملية انتخابية عادية، أو فُجّر سباق سياسي، بل باعتبارها مواجهة بين رؤى متناقضة لمستقبل البلاد، ويعدّونها لحظة حاسمة يمكن أن تحدّد مستقبل فنزويلا عقوداً، داخلياً وخارجياً، فهذا الاستقطاب السياسي الحادّ يعكس تبايناً عميقاً في الأفكار بشأن كيفية إدارة فنزويلا وحلّ أزماتها السياسية والاقتصادية والمعيشية والاجتماعية.

(كاتب سوري في إسطنبول)

نتنياهو وبهاليل الكونغرس الأميركي

أسامة أبو ارشيد

من تابع خطاب رئيس الوزراء الإسرائيلي، بنيامين نتنياهو، الأربعاء الماضي (2024/7/24) في الكونغرس الأميركي، لا بدّ أن يكون خرج بقناعة مفادها بأنّ بين مَنْ يُفترض أنّهم النخبة السياسية الأميركية مجانين ومعاتيه، وحمقى ومرضى نفسيين، ومنافقين متزلّفين، هذا إذا لم يكن بعضهم يُمارس الخيانة ضدّ مصالح بلاده وقيمها المزعومة، إرضاءً لغرور زعيم دولة أجنبية نبذه حتّى مواطنوه. لم تكن المشكلة في خطاب نتنياهو في حجم الأكاذيب والأباطيل التي حواها فحسب، بقدر ما أنّها كانت كذلك في حجم الصفاقة والاستبلاد للجالسين أمامه، دعماً وتأييداً، وهو يوجّه الإهانة تلو الإهانة لبلادهم وقاداتها، من شركائه في جريمة الإبادة في قطاع غزّة وفوق ذلك، وهو يُحرّض على بعض مواطنين أميركيين تجرّأوا على إدانة جرائم إسرائيل، ومَنْ تظاهروا ضدّ خطابه. تحدّث نتنياهو وكأنّ إسرائيل هي القوّة العظمى وأميركا هي الدولة التابعة. نبرته كانت توحي بأنّ الولايات المتّحدة هي التي عليها أن تبدي امتنانها العميق لوجود إسرائيل في جانبها لا العكس، وأنّ من لا يفعلون ذلك هم النخبة السياسية الأميركية، كنصف الديمقراطيين في مجلسي النواب والشيوخ في الكونغرس، ممن قاطعوا خطابه، هم ناكرون للجميل.

تلك الوقاحات كلّها تضمّنها خطاب نتنياهو، وهو يحاضر في سياسيين تؤثّر قراراتهم في العالم كلّه، بوجّهم متى يصفّقون له ومتى لا ينبغي لهم أن يفعلوا ذلك، وهم كالبهاليل، يقفزون على أقدامهم يصفّقون متى ما غمزهم «المايسترو» أو قائد الجوقة، ويطلقون صيحات التأييد لأكاذيبه وافتراءاته، وكأنّهم مجموعة من المُهرّجين من خفاف الوزن المعنوي المستأجرين لهذه المهمّة الدون. سبق أن كتبتُ مقالاً نُشر في «العربي الجديد» (21 /6/ 2024) عن إهانات نتنياهو المتكرّرة للتصدّي لمعاداة السامية فكان نصيبها توبيخاً على أساس أنّها مكوّنة من «أكاديميين مشوّشين». ثالثة الأثافي تمثّلت في جولات التصفيق الطويل والحار، وفي بهلوانية صرخات التأييد من أعضاء الكونغرس أمام تطاولات نتنياهو وإهاناته، وكأنّك تراقب أفاعي الكوبرا تتراقص على أنغام عازف الناي.

حقيقة، إذا وضعنا جانباً أيّ أحكام قيمية مُسبقة، يحقّ لنتنياهو أن يفعل ذلك وأكثر. يحقّ له أن يضع قدمه في وجه كثيرين من الساسة الأميركيين، كما هو يشرّع لسانه سليطاً عليهم. لقد أثبتت التجارب على مدى أكثر من ثلاثة عقود أنّ نتنياهو ينجو بأيّ فعلة شنعاء يرتكبها في حقّ الولايات المتّحدة. يكفي أن نذكر هنا أنّ إدارة بايدن كانت تتعامل معه على أنّه شخص غير مُرحّب به في واشنطن، إذ لم يقابله بايدن منذ مطلع عام 2021 في البيت الأبيض مرّة واحدة، ولكن، ما إن فرضت قيادة الجمهوريين في مجلس النواب دعوته، رغماً عن الإدارة والديمقراطيين، ليخاطب الكونغرس، حتّى كان البيت الأبيض يكافئه بتذلّل لبيلتقي بايدن. الأمر نفسه مجموعة من المُهرّجين من خفاف الوزن المعنوي المستأجرين لهذه المهمّة الدون. سبق أن كتبتُ مقالاً نُشر في «العربي الجديد» (21 /6/ 2024) عن إهانات نتنياهو المتكرّرة للتصدّي لمعاداة السامية فكان نصيبها توبيخاً على أساس أنّها مكوّنة من «أكاديميين مشوّشين». ثالثة الأثافي تمثّلت في جولات التصفيق الطويل والحار، وفي بهلوانية صرخات التأييد من أعضاء الكونغرس أمام تطاولات نتنياهو وإهاناته، وكأنّك تراقب أفاعي الكوبرا تتراقص على أنغام عازف الناي.

> تجرّأ نتنياهو أمام الكونغرس على التحريض على قيم أميركية يفترض أنّها مُحصّنة دستورياً

حقيقة، إذا وضعنا جانباً أيّ أحكام قيمية مُسبقة، يحقّ لنتنياهو أن يفعل ذلك وأكثر. يحقّ له أن يضع قدمه في وجه كثيرين من الساسة الأميركيين، كما هو يشرّع لسانه سليطاً عليهم. لقد أثبتت التجارب على مدى أكثر من ثلاثة عقود أنّ نتنياهو ينجو بأيّ فعلة شنعاء يرتكبها في حقّ الولايات المتّحدة. يكفي أن نذكر هنا أنّ إدارة بايدن كانت تتعامل معه على أنّه شخص غير مُرحّب به في واشنطن، إذ لم يقابله بايدن منذ مطلع عام 2021 في البيت الأبيض مرّة واحدة، ولكن، ما إن فرضت قيادة الجمهوريين في مجلس النواب دعوته، رغماً عن الإدارة والديمقراطيين، ليخاطب الكونغرس، حتّى كان البيت الأبيض يكافئه بتذلّل لبيلتقي بايدن. الأمر نفسه مجموعة من المُهرّجين من خفاف الوزن المعنوي المستأجرين لهذه المهمّة الدون. سبق أن كتبتُ مقالاً نُشر في «العربي الجديد» (21 /6/ 2024) عن إهانات نتنياهو المتكرّرة للتصدّي لمعاداة السامية فكان نصيبها توبيخاً على أساس أنّها مكوّنة من «أكاديميين مشوّشين». ثالثة الأثافي تمثّلت في جولات التصفيق الطويل والحار، وفي بهلوانية صرخات التأييد من أعضاء الكونغرس أمام تطاولات نتنياهو وإهاناته، وكأنّك تراقب أفاعي الكوبرا تتراقص على أنغام عازف الناي.

> تجرّأ نتنياهو أمام الكونغرس على التحريض على قيم أميركية يفترض أنّها مُحصّنة دستورياً

حقيقة، إذا وضعنا جانباً أيّ أحكام قيمية مُسبقة، يحقّ لنتنياهو أن يفعل ذلك وأكثر. يحقّ له أن يضع قدمه في وجه كثيرين من الساسة الأميركيين، كما هو يشرّع لسانه سليطاً عليهم. لقد أثبتت التجارب على مدى أكثر من ثلاثة عقود أنّ نتنياهو ينجو بأيّ فعلة شنعاء يرتكبها في حقّ الولايات المتّحدة. يكفي أن نذكر هنا أنّ إدارة بايدن كانت تتعامل معه على أنّه شخص غير مُرحّب به في واشنطن، إذ لم يقابله بايدن منذ مطلع عام 2021 في البيت الأبيض مرّة واحدة، ولكن، ما إن فرضت قيادة الجمهوريين في مجلس النواب دعوته، رغماً عن الإدارة والديمقراطيين، ليخاطب الكونغرس، حتّى كان البيت الأبيض يكافئه بتذلّل لبيلتقي بايدن. الأمر نفسه مجموعة من المُهرّجين من خفاف الوزن المعنوي المستأجرين لهذه المهمّة الدون. سبق أن كتبتُ مقالاً نُشر في «العربي الجديد» (21 /6/ 2024) عن إهانات نتنياهو المتكرّرة للتصدّي لمعاداة السامية فكان نصيبها توبيخاً على أساس أنّها مكوّنة من «أكاديميين مشوّشين». ثالثة الأثافي تمثّلت في جولات التصفيق الطويل والحار، وفي بهلوانية صرخات التأييد من أعضاء الكونغرس أمام تطاولات نتنياهو وإهاناته، وكأنّك تراقب أفاعي الكوبرا تتراقص على أنغام عازف الناي.

(كاتب فلسطيني في واشنطن)

«مهرجان» تلميع نتنياهو

حسام كنفاني

للمرة الرابعة خلال خمسة عشر عاماً، يحتل رئيس الحكومة الإسرائيلي بنيامين نتنياهو منصة الكونغرس الأميركي بغرفتيه (النواب والشيوخ)، ليُستقبَل بحفاوة غير مسبوقة لأي زعيم وقف على منبر المجلس التشريعي الأميركي. في عام 2015، كان الاستقبال مماثلاً، حينما جاء إلى الولايات المتحدة في عهد الرئيس الأسبق باراك أوباما، للاعتراض على الاتفاق النووي الذي أبرمته الإدارة الأميركية مع الجمهورية الإسلامية الإيرانية. لكن هذه المرة الأمر مختلف، فنتنياهو يخطب في المشرعين الأميركيين، وهو متهم بشكل رسمي بارتكاب إبادة جماعية في قطاع غزة، وهو يعاني من فقدان شعبيته في الداخل الإسرائيلي، وسط تصاعد المطالبات برحيله من رئاسة الوزراء، بعد فشله في إطلاق سراح المحتجزين لدى «حماس»، أو تحقيق الأهداف التي وضعها للعدوان على قطاع غزة.

لكن هذا لم يؤثر بالمشهد في الكونغرس الأميركي، الذي بدا كأنه «مهرجان» ل

قرار «العدل الدولية» ليس كافياً

عاطف أبو سيف

أضيف الرأي الاستشاري لمحكمة العدل الدولية، الصادر قبل أيام، إلى قائمة القرارات الإيجابية التي باتت فلسطين تحظى بها في المحافل الدولية أخيراً، لكنّه، في حقيقة الأمر، لن يُغيّر من الواقع شيئاً. وبالقدر الذي علينا فيه أن نهلّل ونستبشر بمثل هذه القرارات، علينا أن نتذكّر، بالقدر ذاته، أن هذه القرارات ذاتها بات لها أكثر من عشرين عاماً تتفاعل في أروقة مُؤسّسات القضاء الدولية، كما في ممّرات المنظّمات الدولية كافّة، منذ فتوى محكمة العدل الدولية بشأن جدار الفصل العنصري. لم يسبق، منذ ذلك الوقت، أن تبنّت محكمة العدل الدولية موقفاً ينتقص من الحقوق الفلسطينية في مناطق الدولة الفلسطينية في حدود الرابع من يونيو/ حزيران (1967). وبالطبع، هناك من يجب أن يضع ألف خطّ حول فكرة الدولة على حدود الرابع من حزيران، إذ لا شيء عن حقوق الشعب الفلسطيني التاريخية التي سرقتها النكبة وهدمتها القرارات الأممية المتعاقبة، التي أسّست لقيام دولة إسرائيل على ركام الشعب الفلسطيني وحطامه باسم المنظّمات الدولية. والمُؤكّد أنّ الرغبة في قيام إسرائيل وزرعها في المنطقة ليست وليدة وعد بلفور (1917) المشؤوم، بل إنّها سبقته بأكثر من قرن، ويمكن تتبع ذلك في كثير من خطابات الساسة والمفكّرين الغربيين، ويمكن القول إنّ دوافعهم لم تكن يوماً حُبّاً باليهود ولا حماية لهم. عموماً، بيت القصيد هنا أنّه حتّى تلك القرارات التي نصفّق لها لا تعني كثيراً في سياق الحديث عن حقوقنا غير القابلة للتصرّف، ولا عن الجرائم كلّها، التي ارتُكِبت في حقّنا منذ بدايات «تنكيبنا» مع وجود الاحتلال البريطاني، الذي يطيب لكثيرين تنعيمه وتدليعه وإطلاق اسم «انتداب» عليه، عملاً بصياغة المُحتلّ نفسه للصفات الحميدة التي يرغب في أن يُنادى بها.

ومع ذلك، لا يمكن الانتقاص من هذه القرارات، التي باتت تُشكّل هاجساً متصاعداً لدولة الاحتلال ولجنرالاتها وقادتها، خاصّة أنّهم يرون كمّية الكراهية المتصاعدة في العالم لما تقوم به من قتل وتذبيح وتشريد، الأمر الذي قد يُؤثّر في مستقبل مقدرتهم على الحركة في حال اتخاذ بعض المحاكم المحلّية، في الدول الأوروبية خاصّة، قراراتٍ تتعلّق باعتقال مسؤولين إسرائيليين، استناداً إلى فتاوى محكمة العدل الدولية وقراراتها. ومن المُؤكّد أنّ أية قراراتٍ من محكمة الجنايات ستكون مفيدة كثيراً في تصعيد النضال الحقوقي ضدّ مجرمي الحرب في دولة الاحتلال، الذين يواصلون بلا رادع وبلا خوف من المجتمع الدولي جرائمهم في حقّ أهلنا في غزّة. وعليه، فإنّ النضال من أجل مواصلة مثل هذه القرارات أمر مهمّ، وكفاح واجب من أجل محاصرة دموية الاحتلال وشهوته الحيوانية لقتل أطفالنا وتدمير بلادنا. إنّ التقاء لحظة غزّة مع تصاعد الجهود والحراك الدبلوماسي الفلسطيني الرسمي، من شأنه أن يزيد من فرص تحقيق مزيد من النجاحات في هذا الجانب. وبقدر أهمية ذلك كلّه، ثمة حاجة لتطوير أدوات النضال السياسي الفلسطيني وتثوير الكفاح في المحافل الدولية، سواء في الأمم المتّحدة أو في محكمة العدل، ومحاكم الاختصاص المختلفة.

> لا يمكن الانتقاص من القرارات الدولية التي باتت تُشكّل هاجساً لقادة دولة الاحتلال الذين يرون الكراهية المتصاعدة لما يقومون به من قتل وتذبيح وتشريد

> يجب تطوير أدوات نضالية في السياسة الدولية للضغط أكثر على دولة الاحتلال قد تشمل توقيف عضويتها في المنظّمات الدولية

أول ما يتبادر إلى الأذهان محاكمة جنرالات جيش الاحتلال في المحاكم الدولية لتحقيق هدفين يتمثّلان في المساعدة في الضغط لإنهاء حرب الإبادة، وفي معاقبة المجرمين على جرائمهم. نحن بحاجة إلى تطوير مواقف فلسطينية، وخطوات نضالية في المؤسّسات الدولية، لا تكون مُجرّد ردّات فعل على بشاعة ما يجري (على أهمية ذلك)، ولا على مواقف وسياسات إسرائيلية تتّخذ ضدّ السلطة الفلسطينية، بل يجب أن تتأسّس الخطوات الفلسطينية على ضرورة تسعير الصراع بما يكفل الدفع باتجاه تحقيق المصالح العليا لشعبنا.

صحيحٌ أنّ إسرائيل لا تأبه كثيراً بمواقف المجتمع الدولي، فهي قد تعبّر عن قلقها، وقد تبذل كلّ جهد من أجل إحباط أي تحرّك فلسطيني في المؤسّسات الدولية، ولكن عند اللحظة صفر، فهي لن تهتم كثيراً ولن تنجح أي قوّة دولية في إجبارها على التراجع، بالطبع ما لم يتحرّك العالم من القرارات إلى التنفيذ، وهي مرحلة يجب أن تكون ضمن خطط الدبلوماسية الفلسطينية القادمة. وهذا بيت القصيد؛ أن يتحرّك العالم، ليس لاتخاذ قرارات ناعمة في جوهرها، لا تحمل أي صيغة إلزامية له، فقط، بل يجب النضال من أجل قرارات تمسّ حقيقة الصراع. يجب الانتقال من تسجيل النقاط والتصفيق إلى إزالة الغبن الذي لحق بالشعب الفلسطيني على يد المجتمع الدولي.

مرحلة الاعتراف والانضمام للمنظّمات الدولية مرحلة مُهمّة في طريق مراكمة الاعتراف بالحقوق الفلسطينية، وإن فكرة الاعتراف بالدولة الفلسطينية عضواً كاملاً في المنظمة الدولية باتت أقرب من ذي قبل، وهو ما يجب السعي إليه بقوّة في الاجتماعات القادمة، من أجل محاصرة الفيتو الأميركي. ومع هذا، يجب تطوير أدوات نضالية في السياسة الدولية من أجل الضغط أكثر على دولة الاحتلال قد تشمل (وهذا يجب النظر في جوانبه القانونية) توقيف عضوية دولة الاحتلال في المنظّمات الدولية، بما في ذلك الجمعية العامة. هل هناك من يعيد تذكيرنا بأنّ عضوية إسرائيل في المنظّمة الدولية، واعتراف الأخيرة بها، كانا مرهونين باعترافها بقرارين، الأول قرار التقسيم الذي يتحدّث عن إقامة دولة عربية، والقرار 194 الذي يتحدّث عن عودة اللاجئين؟ نعم هذا صحيح. وثمّة وثيقة من إسرائيل بذلك من وزير خارجيتها آنذاك. إنّ تصعيد النضال الدبلوماسي يتطلّب إعادة البحث في ذلك كلّه. لا يمكن للعالم أن يواصل ادّعاء العمى وهو يرى الحقيقة، ولا يمكن أن تواصل المنظّمة الدولية منح دولة تحتلّ دولة أخرى عضويّة فيها وتمنع الدولة التي يقع عليها الاحتلال من عضويتها. العالم عمل كلّ شيء من أجل أن يساعد في سرقة بلادنا منّا ومنحها للعصابات الصهيونية. لا علاقة لنا بأخطاء التاريخ الأوروبي، ولا ذنب لنا في فساد القيم والأخلاق الغربية، التي قادت العالم إلى حربَين كونيتَين ساحقتَين، وبالطبع نحن نتعاطف مع الضحايا في التاريخ، لكن لا يمكن أن تقوم أوروبا بتدفيعنا ثمن أخطائها.

ليس العالم عادلاً إلى هذا الحدّ، لكن في الأقل لا يمكن أن يكون ظالماً إلى ذلك الحدّ أيضاً، ولا يمكن أن يواصل ربط العصبة على عينيه بحُجّة العمى، وهو يتعمّد عدم رؤية الحقيقة. ما يقوله كاتب هذه السطور هنا ضرورة التفكير في خطوات دبلوماسية إضافية من شأنها أن تتناسب مع طبيعة الصراع في المرحلة القادمة، خصوصاً أنّ التوجّهات العامة لدى دولة الاحتلال هي خلق صيغة تواصل فيها احتلال قطاع غزّة، من دون أن تسمّي هذا احتلالاً. إنّ مسألة الاعتراف والانضمام إلى المنظّمات الدولية والتوقيع على الاتفاقيات المختلفة مرحلة مُهمّة، ولكن ربما يكون الأكثر أهمّية حالياً «نزع» المكتسبات التي تتمتّع بها إسرائيل في العالم، فيما لا تعترف بهذا العالم. ويجب، وهذا مهمّ جدّاً، عدم ربط سحب عضوية إسرائيل في المنظمّة الدولية بإقرار عضوية فلسطين، بل يجب أن يكون الموقف الفلسطيني يتمثّل في أنّ حرمان إسرائيل من عضوية المنظّمات الدولية هو عقاب لها على جرائمها في غزّة، وفي كلّ مكان، وهو غير مرتبط بمنح الفلسطينيين عضوية كاملة في الجمعية العامة.

ليس هذا فحسب، بل إنّ إسرائيل تتمتّع بامتيازاتٍ كثيرة تمنحها إيّاها اتفاقيات التجارة التفضيلية مع كثير من التكتّلات والاتّحادات الإقليمية. نعم، إذا كان تبادر إلى أذهاننا الاتفاقية الفضلى التي تربط إسرائيل بالاتحاد الأوروبي فيما يشبه الشراكة الناعمة. تستفيد إسرائيل بشكل مهول من هذه الاتفاقية، سوءاً في الجانب الاقتصادي أو البحثي والعلمي، بل إنّ شركات السلاح الإسرائيلية، التي تصنع الزنّانات (المُسيّرات) والصواريخ، التي تقتل الأبرياء في غزّة، تستفيد من المِنَح البحثية التي توفّرها هذه الاتفاقية، عبر شراكات غير مباشرة مع الجامعات.

انظروا كيف تستخفّ إسرائيل بعقول أوروبا وتتجاوز سياسات «قوانين المنشأ» الأوروبية. الشركات الإسرائيلية التي تقوم بإنتاج البضائع الزراعية أو الصناعية في المستوطنات يكون مركز مكاتبها داخل إسرائيل، وبالتالي لا تظهر علامة الإنتاج الحقيقية على المنتج. طبعاً، الاتحاد يعرف ذلك، ويتظاهر بأنّ كلّ شيء وفق القوانين، متجاوزاً كلّ القيم التي يتحدّث عنها في خطاباته.

ثمّة كثير يجب فعله من أجل إعادة ضبط بوصلة التاريخ، التي انحرفت عن مسارها بقرار عالمي تمثّل في نكبة شعبنا، وجوهر ذلك أنّ العالم لا يمنّ علينا حين يقترب أكثر من تطهير ذنوبه.

(روائي ووزير فلسطيني سابق)

رئيس محكمة العدل الدولية نواف سلام يقرأ القرار في لاهاي، 19 يوليو 2024 (ميك غاموت/فرانس برس)

الشرق والغرب والمكان: بين يدي سؤال الاستشراق

سيف الدين عبد الفتاح

كان من الممكن أن نُؤجّل الحديث عن الاستشراق، ولكنّ سؤال الغرب، الذي ارتبط جوهرياً بسؤال النهوض، ارتبط معرفياً وسياسياً بالشرق، كما قلنا، ناظراً ومنظوراً إليه، فما من غرب إلّا ويُقابله شرق، وحينما أكّدنا أنّ مفهوم الغرب ليس تعبيراً عن مفهوم مكاني مُغلَق، ولا عن معنى جغرافي مُتعيّن المساحة، فذلك يُنسي، وربما يُتناسى، كلّ ما يتعلّق بمنهج النظر إلى المكان والجغرافيا ضمن خماسية ترتبط بالمكان، وما يُمثّله من عالم الإمكانية والممكنون الذي يسكن المفهوم، والمكان المُفعم بالإمكانية لا يمكن إلّا أن يُرى ضمن عالم «المُكنة». المُكنة هي تحويل الإمكانية إلى قدرة مُؤثّرة. إلّا أنّ ما شاع بين كثيرين ممّن عالجوا قضية الشرق والغرب والمشرق، أنّ تلك مُجرّد تصنيفات جغرافية مُحدّدة ومُحايدة، ولكن اتضح أنّ الغطاء الجغرافي مثل أحد أكثر الإشكالات أهمّية، التي تدور حول الشرق والغرب، والعلاقة فيما بينهما، لم يكن الاختلاف على الجهات الجغرافية يقيناً، ولكن لبّ التحيّز إنّما يكمن في نقطة المركز (مركزية الغرب) وفي الإجابة عن سؤال: الغرب أين؟ والشرق بالنسبة لمن؟... ومن هنا، فإنّ الفهم السليم لهذه الحقيقة المكانية هي الأقرب إلى أن تُعبّر عن تصنيفات لا يكون لها تأثير في تحديد نقطة المركز ومسألة النهوض، كما أنّها تُؤكّد مسألة مُهمّة تتعلّق بجغرافية النهوض استناداً إلى الفكرة التي قالها علي شريعتي؛ «جغرافية الفكرة»، ومعادلة مالك بن نبي بشأن أفكار مثل «القابلية» و«الصحّة» و«الصلاحية» و«مشكلة الفاعلية». من هنا، فإنّ الجغرافيا الجامدة الساكنة، المُقفَلة والمُغلَقة، هي من ناحية الوجود جغرافيا ميّتة في الحضور وفي الأثر. الأمر لم يعد في المكان الجغرافي المُحدّد بخطوط طول وعرض، ولكن المقام في الفهم والتصوّر، وإدراك الرسالة والدور، واتخاذ المواقف الاستراتيجية بصراً وبصيرةً، لطرق أبواب الفعل والتفعيل والفاعلية كلّها. حينما نتحدّث عن «فلسفة المكان»، أو إن شئت الاستعارة «روح المكان»، الذي يتقاطع فيه؛ المكان بمحتوياته؛ والروح بفيوضاتها؛ والثقافة بمعطياتها؛ إنّها روح المكان كما عبّر عنها جمال حمدان، فجعل للجغرافيا شأناً آخر، وللمكان فلسفة وروحاً تسكنه. لم تكن الجغرافيا همّ حمدان الوحيد، لكنّه أراد أن يجعل منها مركزاً لكلّ العلوم، فكان لكلّ وادٍ عنده نظرية، ولكلّ بحر دلالة وأهمية، ليصوغ من خلال ذلك نظرية إستراتيجية كاملة في عبقرية المكان، ويُحلّل من خلال تلك النظرية التاريخ والحاضر والمستقبل، بل وينسف بكلّ ثقة ويقين ادّعاءات الكيان الصهيوني بأحقيته المزعومة في أراضي ومُقدّسات فلسطين، وكذا يستشرف مُبكّراً باقتدار مآلات وإحتمالات الصدام والتصدّع المُبكّر بين القوى العالمية المهيمنة على إدارة البيئة الدولية حينها، ولكن قبل حدوثها بسنوات.

> كم من جغرافيا قد يقيم أهلها فيها ويسكنونها إلّا أنّهم لا يتعرّفون إلى أسرار المكان وعبقرياته أو يهملون ذلك أو يتغافلون عنه

> نموذج النهضة اليابانية، مهما اختلفنا عليه، يُشكّل بادرةً مُهمّة في صفحات التاريخ، حالةَ جغرافيا في عالم الإمكانية وتحدّي البيئة

كما أنّه يُؤصّل معاني تصوّره؛ تصوّر المكان وإدراكاته، في حال حركة الحياة والزمان، هي التي تؤصّل معاني الوسط المحيط والذاكرة والروح، والفكرة والحركة والخبرة، والمعنى والمغزى. إنّها فلسفة المكان، سؤال المكان المُتفجّر بالمياه من بين ثنيّات حركة التاريخ، وتبصّر علاقات الشرق بالغرب. يلقي حمدان علينا دروسه الواعية لتأسيس الوعي، والداعية إلى رشيد السعي. كم من جغرافيا قد يقيم أهلها فيها ويسكنونها إلّا أنّهم لا يتعرّفون إلى أسرار المكان وعبقرياته أو يهملون ذلك أو يتغافلون عنه، ومن ثمّ يفشلون في تحويله مُكنةً، ويُخفِقون في التعامل خارج المكان المخصوص والمُتعيّن ليتحوّل مجالاً حيوياً أكثر اتّساعاً وأبعد أفقاً، فتدخل على الجغرافيا السياسةُ، والثقافةُ، الاجتماعُ والإدارةُ. إنّ علم القدرات هو في استثمار المكان والتعرّف إلى مُعطياته وقُدراته، والقدرة هي استثمار الإمكانية، أكبر استثمار ممكن، فلا يتغافلون عنها ولا يهدرون أصولها، فيحولون المكان عمراناً بالمفهوم الخلدوني الواسع عن عمران المكان، وعمران الإنسان، وعمران الكيان والأوطان، بل عمران الأكوان، بل إنّ نقص الإمكانية في عالم النهوض لم يكن ليقف في سبيل قيام الجغرافيا وقاطنيها بالتغلّب على قصور عالم الإمكانية فيها، إنّها الإرادة والإدراك والسياسات، التي لا تشكّل المكان فقط بإمكاناته من جديد، بل تصنع الإمكانية ذاتها، فتحوّلها مُكنةً وقدرةً. إنّ نموذج النهضة اليابانية، مهما اختلفنا عليه، يُشكّل بادرةً مُهمّة في صفحات التاريخ، حالةَ جغرافيا في عالم الإمكانية وتحدّي البيئة. ومن عالم الجغرافيا المُفعَمة بالسياسات الناهضة، والفاعليات الاستراتيجية الرافعة، تتحوّل الإمكانات مُكنةً، والمُكنةُ مَكانةً، وهذا هو بيت القصيد، الانتقال من عالم القدرة والمُكنة إلى عالم المرتبة والمكانة، وهو بذلك لا يرتبط بمكانة رمزية أو إسميّة، بل الأمر أكبر لتحديد المكانة وقياس أبعادها الجيوستراتيجية، والثقافية، والحضارية، ورؤية العالم والسياسات الكونية. المكانة حالة ظاهرة ومكنون ثقافي وقيمي، وممارسة ما يسمّى بفنّ الإمكان والممكن، لتعظيم المكانة والمحافظة عليها والاستمرارية والاستدامة من حفظ ابتداء إلى حفظ بقاء. إنّ حال التدافع بين الشرق والغرب، والشمال والجنوب، صار أحد قوانين الانتظام السنني الحاكم للعلاقة، وهو في واقع الأمر تدافع طويل المدى وتنوّع في العلاقات وموازينها، وتغيّر في المكانة وحال التمكين.

النظر إلى المكان (جغرافيا) مصمتة مقفلة ومغلقة، نظر عليل وكليل، وهو لا يتحرّك في جغرافيا فارغة، ولكنّها مسكونة بـ«الديموغرافيا . البشر والإرادة»، والجيولوجيا وعالم الإمكانية، والاستراتيجية وعالم التدبّر والتدبير، والوعي الحضاري والفاعلية والتأثير، وعالم البيولوجيا المُتعلّق بالحالة الشبابية الناهضة. إنّ الخروج من حال التصوّر المكاني موضعاً غير النظر إلى المكان باعتباره موقعاً، تتراكم فيه وعي التصوّرات، وتُترجَم في عالم السياسات والتصرّفات والاستراتيجيات. المكان بهذا الاعتبار وعاء مكاني لا يهمل ذاكرته، ولا يهمل تلك الأمور كلّها، التي تتعلّق به، ولا يهمل محيطه أو علاقاته الدافقة والمُعقّدة، تدبّر المكان ضمن حدوده الجغرافية، وتدبير أمر المحيط وما يفرضه من علاقات في المجال الحيوي عبر المكان وطبقات الذاكرة والتاريخ والزمان، الفارق بين الجغرافيا الحيّة، والجغرافيا المصمتة المقفلة وربّما الميّتة. يبوح المكان بأسراره عند الحركة فيه أو منه، الحركة في المكان، والهجرة من المكان، والهجرة في المكان، عالم الرحلة شكّل نظراً مبدعاً للمكان في حال الارتحال، لا يمكننا إغفاله أو إهماله، ارتحال الإنسان مستصحباً المكان الذي سكن فيه، إلى مكان آخر يستشرفه ويحاول معرفته. قد يعتب علينا بعضهم لأنّنا نحونا في هذا المقال منحىً فلسفياً بشأن المكان، ولكن في حقيقة الأمر لم نبتغ ذلك لأغراض التفلسف، بل هو أمر يتعلّق بالتصوّرات والسياسات والمواقف حيال العلاقة بين شرق وغرب، وهذا التصوّر شكّل الاستشراق أحد تجلياته، وشكّل الاستغراب أحد ردود فعله؛ وشكّل سؤال النهوض مَقصده. ومن عمق رؤية فلسفة المكان كما وجّه حمدان، فنحن أمام خمسة أمور مُهمّة. الأول، أنّ الغرب ليس مكاناً أو جغرافيا مصمتة، وأنّ الشرق ليس في المقابل مكاناً مغلقاً أو مقفلاً. الثاني أنّ الغرب مثّل مفهوماً معرفياً وثقافياً وحضارياً، وكذا الشرق في تصوّراته لا يخرج عن تلك الدوائر المعرفية والثقافية والحضارية. الأمر الثالث، أنّ مقولة الشاعر الإنكليزي كبلينغ «الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا أبداً» كذّبتها وقائع التاريخ. فالاقتران الجغرافي والتاريخي بين تفاعل المكان والزمان، والتاريخ والجغرافيا، والذاكرة المُتعلّقة بهما، أكّدته العلاقات وامتدادها وتنوّعها، فالتفاعل والتبادل ضرورة حضارية وثقافية. كما أنّ هذه المقولة «الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا أبداً»، مقولة صحيحة لأنّها تنتمي إلى العصر الاستعماري الذي كرّس التمييز العنصري والتفرقة. أما الأمر الرابع فهو أنّ للغرب وجوهاً كثيرة، كما للشرق ذات الوجوه، تتحرك ضمن دوائر المشترك والمختلف، والعام والخاص. والخامس، أن تصورات المكان شكّلت في حضارة الغرب رؤيةً للعالم فاضت عن مركزيته، وإحكام قوته وسيطرته، إلى الحدّ الذي عدّ فيها آليات العدوان، بدعوى الإعمار أو أنّ تلك الأرض لا صاحب لها ومكان لا يؤبه للبشر فيه، عدّها مكاناً لـ«الكشوف الجغرافية» ولـ«الحقبة الكولونيالية».

هذه مقدمات ضرورية بين يدي سؤال الاستشراق، والفهم الواسع لروح المكان.

(كاتب مصري في إسطنبول)

العربي الجديد
www.alaraby.co.uk
تصدر عن شركة فضاءات ميديا ليميتد (Fadaat Media Ltd)

رئيس التحرير معن البياري ■ مدير التحرير ارنست خوري ■ المدير الفني إميل منعم ■ السياسة جمانة فرحات ■ الاقتصاد مصطفى عبد السلام ■ الثقافة نجوان درويش ■ منوعات لياك حداد ■ المجتمع يوسف حاج علي ■ الرياضة نبيل التليلي ■ تحقيقات محمد عزام ■ مراسلون نزار قنديل

المكاتب
■ المكتب الرئيسي، لندن
Ealing Cross, Second floor, 85 Uxbridge Road, London, W5 5TH
Tel: 00442045801000
■ مكتب الدوحة
الدوحة ـ برج الفردان ـ لوسيل ـ الطابق الـ 20 ـ
هاتف: 0097440190600

■ مكتب بيروت
بيروت ـ الجميزة ـ شارع باستور ـ بناية west end 33
هاتف: 009611567794 - 009611442047
■ البريد الإلكتروني: Email: info@alaraby.co.uk
■ للاشتراكات: alaraby.co.uk/subscriptions
هاتف: 97440190635+ جوال: 97450059977+
■ للإعلانات: alaraby.co.uk/ads